دور الفعل الأخلاقي على بنية العمارة النمطية والتفكيكية

الدكتور أكرم جاسم محمد العكام[1] الدكتور عبد الله سعدون سلمان المعموري[2]

الملخص

رغم حرص المعمار العربي الإسلامي على حضور القيم الأخلاقية بشكل فطري بما يمثل انعكاس قيم المجتمع في العمارة كفعل أخلاقي إلاَّ أنَّ المفهوم الأخلاقي كفعل إنساني من خلال فلسفة القيم الأخلاقية لم ينل حضوراً كافياً في الدراسات والبحوث المعمارية العربية، رغم أنَّ للعديد من المناهج الفلسفية الغربية المعاصرة كالبنيوية وما بعدها والتفكيكية الأثر الظاهر في تفعيل الموقف الأخلاقي الفلسفي الغربي. ويبدو أنَّ المناهج الفلسفية العربية الإسلامية التي تزخر بالمفاهيم الأخلاقية لم توفر آلية لتطبيق تلك المفاهيم القيمية في النتاج المعماري. ونظراً إلى عدم وجود تصور واضح لمفهوم الوظيفة الأخلاقية لبنية التوجهات المعمارية عموما، فقد حُدِّدَت المشكلة البحثية في الحاجة العلمية لمعرفة دور الفعل الأخلاقي في بنية العمارة التفكيكية والنمطية. افترض البحث تأثر بنية العمارة النمطية والتفكيكية بالفعل الأخلاقي. وهدف إلى الكشف عن دور الفعل الأخلاقي في بنية العمارة التفكيكية والنمطية.

اعتمد البحث أسلوب الدراسة التحليلية الوصفية Descriptive analytical method، واستمارة الملاحظة observation check list كوسيلة للاختبار. شملت العينة البحثية Research Setting ستة مشاريع، ثلاثة منها تفكيكية ممثلة للعمارة الغربية وثلاثة أخرى نمطية ممثلة للعمارة العربية الإسلامية، وعينة مستجيبة Respondents شملت (20) مستجيباً.

تضمنت العملية المسحية ثلاثة أوجه إجرائية، استغرقت قرابة ثلاثة أشهر، واعتمد برنامج التحليل التائي T-test : Analysis Tool Pak باستخدام الحقيبة الإحصائية Spss - version 14 , 2005 بغية التحقق من هدف البحث وفرضيته.

[1] أستاذ مشارك– قسم العمارة –جامعة العلوم التطبيقية– عمان

[2] مدرس مساعد– قسم الهندسة المعمارية – الجامعة التكنولوجية– بغداد

أوضحت النتائج فاعلية متغيرات الفعل الأخلاقي العقلاني في بنية العمارة النمطية المتمثلة بالالتزام بعناصر شكلية نابعة من أنماط تاريخية، والالتزام باعتماد المواد المحلية القابلة للاستدامة والتدوير، واعتماد الخصوصية من خلال زيادة نسبة الصلادة بالجدران، والوحدة والانسجام بين العناصر المعمارية للتكوين الشكلي، واعتماد المراجع الشكلية المعمارية التاريخية أو التراثية المنمطة، واعتماد آلية التجريد من خلال التقليص والاختزال الشكلي، واعتماد الوسطية في التوجيه والنسب الشكلية الأفقية والعمودية، والبساطة والوضوح في محاور الحركة والتنطيق الفضائي، وتلاحم البناء الشكلي مع القشرة البيئية والهيكل الإنشائي . كما أشارت النتائج إلى فاعلية متغيرات الفعل اللا أخلاقي اللاعقلاني في بنية العمارة التفكيكية المتمثلة باستخدام الأشكال المفروكة وغير المألوفة، واللا هرمية والمقياس اللا إنساني في بناء العناصر الشكلية، واللا اتزان باعتماد علاقات شكلية غير تامة، و اللا وحدة واللا تجانس واللا انسجام بين العناصر المعمارية للتكوين الشكلي، والتفكيك واللا نظام والتنافر، واللا تناغم الشكلي مع الطبيعة وضرب الأبعاد المكانية، واعتماد آلية التجريد بالاختزال والتحوير، والغموض والتعقيد في محاور الحركة والتنطيق الفضائي، وتفكيك البناء الشكلي وعزله عن القشرة والهيكل الإنشائي.

وأكدت الاستنتاجات التزام الفعل الأخلاقي بهيمنة مفردات المراجع والعلاقات والقواعد الشكلية التاريخية بغية تحقيق استمرارية الاتصال والتواصل في العمارة النمطية، وتحرر الفعل اللا أخلاقي من خلال ضرب القواعد والعلاقات والمراجع التاريخية الشكلية في بنية العمارة التفكيكية.

وصيغ الاستنتاج النهائي بتراوح دور الفعل الأخلاقي في العمارة بين العقلانية المتمثلة باعتماد القيم الخلقية الايجابية والالتزام بالعناصر والعلاقات والقواعد الشكلية لبنية العمارة النمطية، وبين اللاعقلانية المتمثلة باعتماد القيم اللا أخلاقية السلبية والتحرر من كل التزام شكلي أو وظيفي في بنية العمارة التفكيكية.

– المقدمة

حَظِي موضوع الأخلاق باهتمام كبير من الفلاسفة فنشأت نظريات ومذاهب ودراسات أخلاقية متعددة، اتجه بعضها اتجاهات متطرفة نحو المادية المفرطة، فجردت الإنسان من الأخلاق، وعدّتها قيوداً تكبت إرادته، مؤكدة عدم وجود قيم أخلاقية ثابتة وكلية، ترى أن الأخلاق قضايا نسبية وجزئية أنتجتها تجربة إنسانية فردية، في حين عدت القيم الأخلاقية في النظريات العربية الإسلامية كقواعد ومبادئ كلية ومطلقة. أخفقت الحداثة الغربية في مجال القيم الأخلاقية التي بنيت على المنفعة أو على العقل، وأبعدت القيم الأخلاقية عن المثل الأعلى الحقيقي، وهاجم فلاسفة ما بعد الحداثة والتفكيكية العقل الذي تصوره الحداثة على أنّه حل لمشاكل الإنسان، وإن العلم هو مفتاح السعادة وإن انقطع عن القيم الأخلاقية. اشتقت فكرة البحث من جدلية العلاقة ما بين الفعل الأخلاقي للعمارة والبنية المعمارية، ومن خلال طرح نظريتين معماريتين هما النظرية النمطية التي تأتي استجابة للعوامل البيئية والاجتماعية والثقافية والعقائدية والتقنية لمجتمع ما وكتوجه فكري ملتزم بعناصر وعلاقات وقواعد تنظيمية يقود إلى الهوية والخصوصية والعمارة المحلية واستقرار البنية، وقد مثلت هذه النظرية بالتوجهات العربية الإسلامية، والنظرية التفكيكية الممثلة بالتوجهات الغربية التي تعتمد خصائصَ وقيماً لا إنسانية لبلوغ المستحيل وإحياء بذرة الشك التي زرعها " نيتشه" لتهيئة الأجواء الفكرية لتقبل فكرة نقض الأساليب القائمة على المنطق والعقل والثوابت الأخلاقية ومهاجمة المعتقدات والقيم وإحياء الوثنيات والأساطير، لتحصل الفلسفة العدمية على تطبيقات للقواعد المنهجية التي أظهرتها استراتيجية التفكيك والانتهاك والبعثرة كتوجه نظري يتعلق بالعولمة ورج البنية.

حددت المشكلة البحثية في الحاجة العلمية لمعرفة دور الفعل الأخلاقي في بنية العمارة النمطية والتفكيكية، بهدف الكشف عن دور الفعل الأخلاقي في كلتا البنيتين، مفترضاً تأثر بنية العمارة النمطية والتفكيكية بالفعل الأخلاقي.

قُسم البحث إلى ستة محاور، تناول المحور الأول المصطلحات الأساسية الواردة في البحث وتحديد المشكلة البحثية، واهتم المحور الثاني بالإطار الفكري للفعل الأخلاقي، ووضح المحور الثالث الإطار المفاهيمي للفعل الأخلاقي والبنية المعمارية النمطية والتفكيكية، وبلور المحور الرابع النموذج الفكري الافتراضي لدور الفعل الأخلاقي في البنية النمطية والتفكيكية في العمارة، واهتم المحور الخامس بالإجراءات التطبيقية والعملية التحليلية، واختتم المحور السادس بأهم النتائج والاستنتاجات.

1- تعريف المصطلحات الأساسية واستخلاص المشكلة البحثية

تتناول الفقرة كلاً من تعريف المصطلحات الأساسية واستخلاص المشكلة البحثية.

أ– تعريف المصطلحات الأساسية

عدت بعض النصوص الأخلاق على أنها الخلق والطبع الراسخ في النفس، الذي يعني عادة النفس وحقيقة طبعها في ردود الفعل العملية الصادرة عن الإنسان، إذْ يقال مثلاً إنَّ فلاناً حاد الطبع أو له أخلاق حادة وخشنة. وتعرف الأخلاق كهيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية. وللأخلاق تعريف يفيد بأنَّها مجموعة قواعد تُفضي رعايتها إلى العقلانية وبلوغ الكمال اللازم، وبهذه المنزلة تعدُّ قواعد الأخلاق معيار

تشخيص الحسن والقبيح. وهي قاعدة السلوك الإنساني، والمقصود منه الفعل الذي يقوم به الإنسان العاقل بإرادة حرة، وبأمر من العقل لبلوغ هدف يتوخى العقل تحقيقه.ويكون الالتزام بالقيم والارتقاء على مستوى الفعل العادي هو من خصائص الفعل الأخلاقي. فالأخلاق تمنح القواعد لتنظيم الحياة من زاوية طبيعة السلوك وكيفيته، وكيف ينبغي للإنسان أن يكون[1]. وأوضحت الطروحات المصدر الاشتقاقي لمفهوم أخلاقي Ethical من ethos، وان person's ethos (للذكر والأنثى) تعني الشخصية والطبيعة والمزاج، ويشير مفهومcommunity's ethos إلى المزاج النفسي والعقلي الذي يوجه الفعاليات. وبذلك تشير Ethos روح المجتمع إلى الطريقة التي وجدت فيها البشرية في هذا العالم وطريقة سكناهم [2]. أمَّا الفعل الأخلاقي فهو أمر اختيار، حر، دنيوي، لا علوي، وهو يرجع إلى استخدامنا الحسن أو السيّئ لقدراتنا العليا، وهي قدرات يزكي تثقيفها النفس، كما يدسيها ويطمسها إهمالها، " قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها "[3].

ويعبر الاختيار الأخلاقي عن الفعل الإرادي للإنسان، وتعدُّ أفعال الإرادة في درجة أعلى من أخلاق الذات، وهي لا تصدر عن الغريزة والفطرة بل عن العقل الذي هو فضيلة من فضائل أخلاق الذات[4].

وتعرف البنية Structuralism بأنها تكوين شكلي متكرر في ظواهر يعطي نظاماً وفق خصائص معينة،كما أن البنية لا تتطابق مع مجموعة العلاقات الظاهرية، ومن مميزاتها الشمولية والتحولات والتنظيم الذاتي المعتمد بدوره على الإيقاعات والتنظيمات والعمليات [5]. وتعرف النمطية Typology بأنها إحدى الأفكار للتعامل مع التقاليد وإنتاج عمارة جديدة لها أسس وقواعد مميزة بنتاجاتها، وهي علم الأنماط أو المنهجية البحثية التي تتناول النمط كموضوع دراسة تحليلية. وتشكل النمطية مركز جدل قائماً بين المعماريين وعلماء الاجتماع أساسه الطبيعة وأبعاد علاقة العمارة بالمجتمع وممارساته[6] .

وتعرف التفكيكية Deconstruction بأنَّها التعامل مع الأشياء أو النصوص عن طريق تهشيمها للأسس التي تقوم عليها وتبيان التناقض والاختلاف في بنائها للوصول إلى قصد الفنان الواعي واللاواعي بغية إغناء النص[7].

والعمارة التفكيكية حركة معمارية نبعت وتطورت عن البنيوية، تأثرت بكتابات مؤسسها جاك ديريدا في مجالي اللغة والفلسفة، وتطبيقات أفكاره في حقول المعرفة والفنون المختلفة. تدعو التفكيكية إلى تحطيم الحدود بين العمارة والنصوص الأُخرى كالفلسفة، والفن، والأدب، مُدنسةً العمارة بجعلها على اتصال مع الأوساط الأُخرى، محاولةً فك سيطرة الفرضيات المعمارية كالجمال والوظيفة والنفعية والسكنى والمعيشة [8].

ب- استخلاص المشكلة البحثية

تتناول الفقرة كلاً من الطروحات المعمارية الغربية والعربية الإسلامية. إذ أشارت الطروحات الغربية إلى عمارة ما بعد الحداثة وكفاءتها في الخلق المعماري، ومن خلال استثمار طاقات الأنماط والأشكال السابقة ودمجها مع مستجدات الحاضر ووسائله. أنَّها عمارة تجمع بين مبادئ العمارة الحديثة وتقنياتها وبين البنية التاريخية للأشكال والأنماط السابقة لتحقيق عمارة تواصلية تعبر عن فكر الإنسان وماضيه وحاضره ومستقبله[9]. كما عرفت الطروحات المصطلحات النمطية بأنَّها واقعية وملموسة، وتشير إلى الأشياء المؤلفة لبيئتنا المصنوعة من قبلنا، ويعبر معناها بوساطة نوعيتها الشكلية، لقد ألغت العمارة الحديثة

الأنماط الرمزية مستبدله إياها بها العقيدة الوظيفية الداعية إلى إنتاج الوظائف للأشكال، لذلك ظهرت الحاجة إلى أنماط أصلية شكلية Archetypes Forms في تفسيرات وتجميعات جديدة مقدمة عمارة رمزية أصلية [10]. ويبدو من الطرح السابق أهمية البنى التاريخية للأنماط السابقة لتحقيق التواصل.

تهتم الوظيفة الأخلاقية للعمارة بالمساعدة في تشكيل روح المجتمع المشتركة. وتدعي ما بعد الحداثة الوظيفة الأخلاقية للعمارة وقد حاول فنتوري الظهور بمظهر أنساني ولكنه لم يمنح مؤشراً يساعد بصورة أكثر عندما عارض توجهات ميس فان دروه بالدعوة إلى أن القليل يعني الكثير Less is more مستبدلاً بها القليل يعني الممل Less is bore وهذا يوضح امتلاك ما بعد الحداثة مصادر ليس بدرجة كبيرة في الاستجابة الأخلاقية للحداثة بقدر ما تكون استجابة جمالية أو في البحث عن التحرر وعن تنمية مثيرة. فهناك بون شاسع بين أخلاقيات عمارة الحداثة المنفصلة عن روح المكان والتاريخ والذاكرة الجمعية وبين أخلاقيات ما بعد الحداثة التي تدعي الاهتمام بالوظيفة الأخلاقية، ويبحث التقارب الجمالي في عمارة الحداثة عن الإعجاب بالنتاج مهما وقعت طريقة الحصول عليه بالضد من التقارب الأخلاقي[11].

وتساءلت الطروحات عن أهمية وجود الأخلاق والفضيلة التي تتحقق من ذلك، وعن المعنى المجازي عن ماهية العمارة الجيدة؟ وما شرعية الفضيلة في العمارة و تطبيقاتها ؟ وما نوع العيش المتضمن في أشكال الحلول المعمارية الجزئية ؟ وهل تحوي فنون التصميم والبناء للوحدات السكنية التساؤلات الأخلاقية ضمنياً؟ وهل هناك علاقة بين الجودة Goodness والفضائل Virtues للعمارة؟ وحددت الطروحات طرائق للتطبيق المنطقي الأخلاقي في العمارة، إذْ ترى الأولى تداخلاً بين الأخلاق والعمارة، وترى الثانية احتواء العمارة أخلاقاً ومتطلبات أخلاقية، وتقييم الثالثة أطر التفكير المعماري من خلال الأخلاقية، أي استكشاف الطبيعة الأخلاقية في بعض الأساسيات عن الأخلاق وطبيعة البنية الأخلاقية في العمارة. وتعدُّ المفاهيم والالتزامات الأخلاقية والتفكير والفعل الأخلاقي، الجزء الأساس من الوعي في فهم التداخل بين الأخلاق والعمارة، مبينة ضرورة تحديد الأخلاقية في العمارة كضرورة يتطلبها المجتمع العالمي المعاصر المتسم بالتفاعلات الاقتصادية والسياسية التي رفعت من درجة الوعي بالتنوع والهوية الثقافية لكل مجتمع. تتشابه العمارة مع الأخلاق في كونهما يتفقان في انضباط العرض والتعقيد في التطبيقات العملية، فالعمارة مهمتها إنشاء أبنية ليسكن الإنسان فيها بما يتوافق والبيئة الطبيعية للمكان فضلاً عن كونها مهنة ودراسة نظرية تتضمن عمليات التصميم ومراعاة البيئة وإظهار العامل الجمالي، وقد يكون تمثيل هذه الأخلاق في العمارة متطرفاً نوعاً ما وصعباً، حيث تواجه المعماري محددات خارجية مصدرها النظريات الفكرية والتاريخية والفلسفية، والسؤال الأخلاقي الموجه للمعماري، هو: كيف يمكن اتخاذ القرار الصواب أو الخطأ في النتاج؟ وما على المصمم ومخطط المدن أن يقدمه لتحسين أسلوب الحياة ؟ وما الإجراءات التصميمية التي تسهم في بناء العادات المجتمعية الجديدة ؟ وهذا يحمل المعماري مسؤولية الحكم والقرار لفعل الشيء بشكل صحيح، وتتحدد البنية الأخلاقية للعمارة في هذا الجانب بالذات والتي تحوي الالتزام الأخلاقي والعملي ضمنياً. فالعمارة وأنَّ كان بإمكانها أن تؤدي وظيفة أخلاقية لكنها قد تصطدم أحياناً بمعضلات القوانين المرعية والسياسات المحلية

فالتطبيقات الأخلاقية للعمارة يمكن أن تتمثل في حماية البيئة وبناء مساكن منخفضة الكلفة ودور رعاية المسنين، أي إنّها أخلاقيات تتعلق بكيفية العيش ومعنى الحياة وإنجاز ما هو جيد على أن تتسم بالعدالة والإنصاف للحياة الشخصية والمهنية، فالظروف العالمية المعاصرة ووسائل الاتصال تظافرت لخلق مفهوم السيولة الزمانية والمكانية، وهذا أعطى فرصة للعمارة العالمية للتأثير في النمط التقليدي وأخلاقيات العمارة ومن ثَمَّ في النسيج الاجتماعي رغم احتجاج بعضهم بأن مفهوم السيولة ولد أبنية وتجارب حقيقية بمرور الزمن. أدت العالمية إلى ظهور إشارات رئيسية ذات تأثير في بنية العمارة تتمثل في جوهرها، وحضورها الدائم، وقوتها الأخلاقية. وفيما يخص الحضور الذهني للعمارة على أنها تحمل رمزية التعبير عن آمال وتطلعات المجتمع وبهذا تكون انضباطاً أخلاقياً متأثراً بالقيم الجمالية، ويتمثل هذا البعد الأخلاقي حيثما تكون العمارة حاضرة في المكان أي في وجودها الملموس والعملي. أما قوتها الأخلاقية، فأن مسؤولية المعماري هي ليست اتجاه نفسه أو تجاه رب العمل في خلق أبنية منفصلة عن الموقع معتمدة على منطق أخلاقي بل اتجاه المستقبل، فالعمارة تتجاوز حدود المكان والفضاء والمادة، وفتحت هذه الإشارات عدة خطوط للأبعاد الأخلاقية للعمارة جعلت من الأسس والأهداف التي تقوم عليها واضحة، ومسؤوليتها في تشكيل بيئة طبيعية بما يناسب المتطلبات الإنسانية فضلاً عن قدرتها على إنجاز الحاجات الروحية والعاطفية لتجسيد قيم المجتمع. إنَّ حرفة العمارة هي في قدرة المعماري على تشكيل البيئة، وإنَّ الأهداف وراء المساعي المعمارية والعمل الدؤوب في هذا المضمار أموراً لا تفترق، وهي كلها بالأساس أخلاقية [12]. ويبدو أنَّ المفاهيم والالتزامات الأخلاقية والتفكير والفعل الأخلاقي تعدُّ القيمة المركزية من الوعي في فهم التداخل بين الأخلاق والعمارة اللذين يتشابهان في كونهما يتفقان في انضباط الطرح الفلسفي والتقيد في التطبيقات العملية.

انطلقت الطروحات العربية الإسلامية المعمارية من علاقة الانسجام بين الإنسان والطبيعة وإيجاد موازنة بين المعمار الإسلامي والمادة المستخدمة والمعرفة العلمية والإيديولوجية المتبعة، إذْ إنَّ هناك نوعاً من الحوار بين الإنسان المبدع والمادة، وهنالك الاهتمام بالناحية الجمالية والإدراك وصدق التعبير، فطبيعة الإنسان هي الحرية [13].

كما تبنّت الطروحات إمكانية ترجمة أي بناء إلى أخلاق، وإن كان هذا مجرد شكل، فهذا مبنى يبدو عليه التكلف، وذلك صلف ووقح وذاتي وأناني، في حين يفترض بالتراث الإسلامي في العمارة أن لا يعبر إلا عن روح الجماعة والمجتمع ككل. فقد قدم التراث الإسلامي وجهة نظر عميقة، إذْ لم يفرض شكلاً معيناً، فالتراث الإسلامي تراث ديناميكي مع وجود اختلافات عديدة حسب الموقع، إلاّ أنّه لا يخرج على وحدته المتكاملة المتجسدة في العقيدة التي تحدد علاقة الإنسان بالمجتمع ككل، فهناك علاقة بين المجتمع الصغير والكبير، وعلاقة المكان والزمان بحيث تكون علاقة الإنسان بالأرض مصدراً لشعوره بالثقة، وتعد تلك العضوية بمنزلة القيم المتأتية عن علاقة الإنسان بالإنسان، وهي وحدة القيم الاجتماعية. وتأمر العقيدة الإسلامية بالمساواة وتعالج مسألة الإسراف والتبذير أي إنّها تعطي الإنسان أخلاقه، وهكذا يعطي البناء لساكنيه أخلاقهم. لا يعني التمسك بقيم التراث الإسلامي في العمارة العودة إلى الوراء ولا استنساخ الماضي، فالتراث عملية مستمرة وذو طابع ديناميكي

غير جامد، إذْ يحدد مقاييس معمارية عامة يتطلب احترامها لأنَّها تقوم على قيم روحية معينة وقيم أخلاقية ذات أثر كبير في طبيعة السلوك المعماري، وهناك قيم تكوّنت تحت تأثير عامل المناخ، فالفن الإسلامي لا يعطي شكلاً وإنّما روحاً، ويبقى تحديد الشكل يتعاطف مع المقياس الإنساني، فليس هناك وصفة جاهزة لكيفية مراعاة الأحاسيس والقيم الإنسانية وإنّما روح للإبداع تنبثق من تلك القيم. تبنى القيم بمستويين، الأول ما تأمر به العقيدة الدينية، والثاني خلال استلهام قيم التراث المعماري الإسلامية. ويبدو أنَّ عوامل الرغبة والعاطفة والأخلاق تحقق الإبداع في طروحات القيم الأخلاقية [14]. وأكدت الطروحات حضور القيم الأخلاقية في الحياة العربية الإسلامية المعاصرة عبر محور تحقيق الهوية من خلال ثنائية الثقافة والتاريخ، التي تعدَّ من أبرز الثنائيات المرتبطة بالقيم الأخلاقية التي لها تأثير في الفعل الأخلاقي المعماري المعاصر المتأثر بدوره بالموروث الإسلامي، مؤكدة دور المعمار في تفعيل القيم الأخلاقية على ضوء ما أسمته بالمقاومة الثقافية، وضرورة ارتباط القيم بالثقافة والموروث المتطلع إلى روح العصر، ومركزة على عَدِّ الهوية منظومة فكرية تحتل القيم الأخلاقية فيها مكاناً بارزاً، وإلى تفعيل الحضور الجمعي في الدور المعماري لصنع ضرورة حقيقية وموضوعية للقيم الأخلاقية ليكون التعبير عن الهوية برؤية الجماعة كذات [15].

ويبدو مما سبق أنَّ الطروحات المعمارية الغربية قد أكدت أهمية استثمار بنية الأنماط التاريخية لتحقيق التواصل، مركزة على طبيعة الوظيفة الأخلاقية للعمارة وتباينها في توجهات الحداثة وما بعدها. وتساءلت الطروحات عن ماهية الأخلاق في العمارة مركزة على مفردتي الالتزام والفعل الأخلاقي بصورة مبسطة. أمَّا الطروحات المعمارية العربية الإسلامية فقد ركزت على الأخلاق من خلال الالتزام بقيم التراث والهوية وعن دور المعمار في تفعيل القيم الأخلاقية المستمدة من العقيدة الإسلامية. ويمكن الاستنتاج أنَّ الطروحات السابقة قد أكدت بنية النمط المستمد فاعليته من التواصل التاريخي، كما أكدت الطروحات ضمنياً تباين الوظيفة والفعل الأخلاقي ودرجة الالتزام به نتيجة تباين التوجهات الفكرية والنظرية المتباينة وخصوصاً الغربية والعربية الإسلامية، إلاَّ إنَّها لم توضح بشكل دقيق ماهية هذا التباين وخصوصاً ضمن إطار التوجهات النظرية لهما.ونظراً إلى كون العمارة التفكيكية تمثل أحد التوجهات النظرية المعاصرة في العمارة الغربية، وتمثل النظرية النمطية رؤية للعمارة العربية الإسلامية ومن خلال فكرة الفناء الداخلي أو التوجه نحو الداخل لذا سيتم اعتمادهما للتحقق في هذا البحث كممثلين للتوجهات النظرية والفكرية المتباينة. فقد اتسمت الطروحات السابقة بالشمولية وافتقرت إلى نظرة معرفية دقيقة في تحديد مفهوم الفعل الأخلاقي للعمارة في تلك التوجهات الغربية والعربية الإسلامية. وبغرض سد القصور المعرفي ومواكبة المعرفة، فقد اهتمت الدراسة الحالية بتسليط الضوء على المشكلة البحثية بالحاجة العلمية لمعرفة دور الفعل الأخلاقي في بنية العمارة التفكيكية والنمطية، وهدف البحث إلى الكشف عن دور الفعل الأخلاقي في بنية العمارة التفكيكية والنمطية، مفترضاً تأثر بنية العمارة التفكيكية والنمطية بالفعل الأخلاقي.

2- الإطار الفكري للفعل الأخلاقي

تتناول الفقرة الإطار الفكري للفعل الأخلاقي وفقاً للطروحات الغربية والعربية الإسلامية.

أ- الطروحات الغربية

أوضحت الطروحات الغربية الحديثة إسهام فلسفة نيتشه بشكل واضح في حقل الفلسفة الأخلاقية، فقد أثرت فكرة موت الإله بشكل واسع في الأوساط الفكرية العالمية مفترضة أسطورية الأديان، ثم وهمية المفاهيم والقيم الأخلاقية، وأصبح المعيار الرئيس في عالم خالٍ من الإلوهية والمقدسات هو مقدار الفكر المتفتح من التخلص من آثار الميتافيزيقيا المنغلقة، فبموت الإله تسقط المثالية وترتفع العدمية. فقد وضع نيتشه العالم الغربي أمام خيارين بقوله: إمَّا أن تلغوا مقدساتكم وإما أن تلغوا أنفسكم، ثم يختار طريقه بالقول: إنّ العدمية هي الكلمة الأخيرة. وجدت طروحات نيتشه على الصعيد الأخلاقي آذاناً صاغية في الفكر الأوربي ومن خلال طرح خلق الانحطاط والانعتاق من القيم الأخلاقية والدفاع عن نموذج البشر الذي لا يحتاج إلى غفران السماء بعد الآن، بل يؤسس النموذج الجديد أخلاقه انطلاقا من الانفصال عن المعطيات اللاهوتية والقيام بعملية عزل الإله واستلاب قدراته وصفاته ومنحها للإنسان الجديد، ورفع شعار إنّ كلّ شي مباح، فلا توجد عوائق بين رغبات الإنسان وبين القيام بها. وقد ربط مسألة زوال الإله وضرورة انبعاث فلسفة خلقية جديدة ذاتية الطرح وإلحادية المنشأ ومثالية التوجه وعدمية المسيرة وانحلالية الهدف. تتمثل مشكلة الأخلاق في مشكلة الحقيقة والتطابق مع إرادة القوة بوصفها الجوهر الوجودي المتمثل بالموجودات. إنها مشكلة غربة المثال مع الواقع وانهيار القيم العليا وتفكك القيم القبلية ونكران إنسانية الإنسان[16]. أرادت العلمانية إقامة اتحاد مع الإله الجديد الإنسان الخارق لإزاحة المعنى المعياري، وهيمنة القيم النفعية، وتعطيل نماذج الطرح الميتافيزيقي والديني الغربي[17]. فقد أسست طروحات نيتشه لمرحلة ما بعده من خلال تبني نقادها له، ولاسيما جاك دريدا الذي استمد صورة التفكيكية من الهدم النيتشوي، إذ دشن نيتشه فجر التفكيك بعملية طالت العقلانية السائدة، وراجعت فرضياته تاريخ الميتافيزيقيا لتصفيتها والكشف عن منابع قيمها وكل ما أنتجه العقل البشري راغباً في الوصول إلى الجذور لتفتيتها، وبناء أسس جديدة تصل حدودها القصوى بالإعلان عن موت الإله وتعرية كل التأويلات وتمزيق صنمية المفاهيم والإطاحة بها، وهذا تحديداً ما فعله دريدا في الطرح النقدي لما بعد البنيوية. وما فعله دريدا فعله فوكو أيضاً فمنهجه الحفري طال كل التأويلات والمفاهيم الرئيسة التي بنيت عليها اليقينيات القديمة، محاولاً تأسيس إمكانية قيام تأويل جديد. [18]

وقد كان النقد المعاصر أمام صنمين من أصنام نيتشه الأول هو العقل والثاني هو الإله، كما أنّ إرادة الحياة والقوة عند نيتشه كانت كفيلة بإسقاط صنمية النزوع نحو السيادة والتوسع والالتزام، بلا أخلاق وبلا معيار وبلا تحديد، والسعي دائماً وأبداً نحو التشامخ والتعالي والحط من قيمة الآخرين [19]. تنطوي الحداثة على قطيعة متعمدة وأبدية مع الأسس التراثية لكل من الثقافة والفن الغربي، ووضع النظام الاجتماعي، والدين والأخلاق على محك التساؤل، ورغم تعدد أشكال الحداثة إلاَّ أنَّ الذي غلب عليها هو الحاجة إلى رفض الماضي القريب، ورغبة في إعادة صياغة التاريخ أو تفسيره بطريقة متحررة من الموروث. وأثرت الحرب العالمية الأولى في القيم عامة، ومنها القيم الأخلاقية ومؤكدة محاولات سد الهوة الفارغة بين الفن والحياة [20]. طرح دولوز منهجاً للتفكيك يختلف عن منهج دريدا، يقوم على ما يسميه إبداع المفاهيم، فالبحث في المفهوم عنده ليس سوى وسيلة جديدة لإعادة النظر في كل ما هو معياري بدءاً من التعريف

المنطقي فالقانون العلمي والمذهب الفلسفي مروراً بالقيمة الجمالية والدلالية للمبدع الأدبي والفني وصولاً إلى السياسي والأخلاقي. إنّ الجديد في هذا الخطاب هو بناء قيم طروحات ما بعد الحداثة على ضوء انتقاد الموقف الفلسفي في طلب الحقيقة في طروحات الحداثة. ويمكن إدراك القيم الأخلاقية في طروحات دولوز ما بعد الحداثوية، في أحد جوانبها من قوله: إنَّ الفلسفة تمارس إعادة الأقلمة باللجوء إلى المفهوم الذي لا يفتقر إلى التواصل، وإنّما إلى الإبداع فنحن نفتقر إلى مقاومة الحاضر، إذْ يستدعي إبداع المفاهيم في حد ذاته شكلاً مستقبلياً وأرضاً جديدة وشعبا لم يوجد بعد،فكل حاضر مرشح للانطواء حتماً إلاَّ الراهن الذي يأتي بالحاضر ويبقى بعده [21]. وتكمن النقطة الأصلية لكتابات دريدا في محور التفكيكية في إثارة قضايا المسؤولية الأخلاقية بالتحايث مع الأسئلة الابستمولوجية التي طُمست عبر الارتكاس المباشر إلى مقولات الدلالة والنيَّات وسلطة النص والقراءة الصحيحة ومعصومية المؤلف وسواها. إنَّ دريدا لا يقع في فخ تيار ما بعد الحداثة الذي يعلن بنشوة نهاية الواقع والحقيقة وذهنية التنوير، لذلك من الصعب التعامل مع التكفيكية وكأنها جزء من تيار ما بعد الحداثة أو بوصفها فكراً مضاداً للتنوير. إنَّ التفكيكية خطاب يمجد اللعب الحر اللامتناهي لكتابة منقطعة تماماً عن الإكراهات المنغصة للحقيقة والدلالة، وما يعطي التفكيكية زخمها النقدي المتفوق هو تناولها لقضايا الابستومولوجيا والأخلاق والحكم الجمالي التي مثلت الأرضية المركزية للبحث الفلسفي. حاول دريدا بعيداً عن التنكر للمشروع التنويري بمرجعياته النقدية الابستمولوجية والأخلاقية أن يعيد كتابة هذه المعايير ضمن سياقات الحوار الاجتماعي السياسي، إذْ تحافظ الفلسفة على التزامها بالنقد العقلاني والمسؤول للنماذج كلَّها القائمة على ثنائية القوة المعرفة المؤسساتية، فالتفكيكية ليست مجرد حقيبة بلاغية من الخدع، وتكنيكاً لإلغاء الحدود بين الفلسفة والأدب إذ لم تدمر أو تتحدى أبداً قيم الحقيقة القيم المرتبطة بها كلّها، بل أعيد توظيفها ضمن سياقات أقوى وأرحب وأغنى. إنّ النقاد في تحليلهم لأخلاقية معينة منقوشة في اللغة، إنَّما يعيدون إنتاج الشرط الأخلاقي لأخلاقية معينة معطاة تحت غطاء وصفها في صفائها المثالي، ويستثنون ويتجاهلون ويحيلون إلى الهوامش حالات أخرى ليست أقل جوهرية من الأخلاق بشكل عام، سواء أكانت تنتمي إلى الأخلاق المعطاة أو إلى أخرى غيرها، أو إلى قانون لا يستجيب للمفاهيم الغربية عن الأخلاق والحق أو السياسة. وتخضع القيم الأخلاقية لمساءلة تتجاوز كثيراً الحدود الملزمة لممارسة العقل ضمن أطره العملية، متضمنة بوضوح تطبيق استراتيجيات نصية للقراءة تقلل من أهمية أية إحالة واثقة إلى منظومات العقل ومفاهيمه البديهية إلى الحد الذي بعد التفكيك لاشيء يبقى باستثناء شعارات مفرغة من أي مضمون أخلاقي. إنَّ دريدا لا يتنكر لقيم التنويري ومعاييره بمرجعياته النقدية والابستميولوجية والأخلاقية وإنَّما يحاول أن يعيد كتابة هذه المعايير ضمن سياقات الحوار الاجتماعي السياسي شريطة محافظة الفلسفة على التزامها بالنقد العقلاني [22].

ب– الطروحات الإسلامية

تناولت المشكلات التي تنجم عن تفسير الإنسان على أساس الروح والجسد معاً، وتبلور اتجاه حديث في التفكير الأوربي بتفسير الإنسان بعنصر واحد فنشأت المادية في علم النفس الفلسفي القائلة: إنَّ الإنسان مجرد مادة ليس غير كما تولدت النزعة المثالية التي تجنح إلى تفسير الإنسان كله تفسيراً روحياً. كما فسر

الإنسان على أساس العنصرين الروحي والمادي معا، إذْ إنَّ حركة جوهرية في صميم الطبيعة هي الرصيد الأعمق لكل الحركات الطارئة المحسوسة التي تزخر بها الطبيعة، وهذه الحركة الجوهرية هي الجسر بين المادة والروح، حيث تتكامل المادة في حركتها الجوهرية في وجودها وتستمر في تكاملها حتى تتجرد عن ماديتها ضمن شروط معينة وتصبح كائناً غير مادياً أي كائناً روحيا فليس بين المادي والروحي حدود فاصلة بل هما درجتان من درجات الوجود والروح على الرغم من أنَّها ليست مادية لأنَّها المرحلة العليا لتكامل المادة في حركتها الجوهرية [23]. ولا يعني هذا أنَّ الروح نتاج المادة وأثر من آثارها، بل هي نتاج للحركة الجوهرية، والحركة الجوهرية لا تتبع من المادة نفسها لأنَّ الحركة خروج للشيء من القوة إلى الفعل تدريجياً، والقوة لا تصنع الفعل، والإمكان لا يصنع الوجود، فللحركة الجوهرية سببها خارج نطاق المادة المتحركة، والروح التي هي الجانب غير المادي من الإنسان نتيجة لهذه الحركة والحركة هي الجسر بين المادية والروحية. ويعني استخدام تعبير الشيء الموجود بالقوة في المفهوم الفلسفي باللغة العربية الشيء الكامن أو المُحتمل ويقابلها في اللغة الانجليزية كلمة Potential مقارنة بالشيء الموجود بالفعل Existing [24] وأشارت الطروحات إلى أنَّ الإنسان يميز بفطرته بين الفضائل والرذائل، وأنَّ منشأ الأخلاق عبارة عن الانصياع للفطرة، وهذا يعبر عنه بمذهب الفطرة، ويندرج الفعل الأخلاقي تحت مقولة: أنَّ الأخلاق سلوك نابع من ذات الإنسان وذاته، فالفعل الأخلاقي مظهر من مظاهر ما يكمن في وجود الإنسان، ويحكي عن حس باطني [25]. وصفت النظرية الأخلاقية في القرآن بأنَّها تركيبٌ لتراكيب، فهي لا تلبي المطالب الشرعية والأخلاقية والقرآنية والاجتماعية والدينية كلّها فقط بل تتغلغل بعمق روح التوفيق بين شتى النزعات من متحررة ونظامية، عقلية وصوفية، لينة وصلبة، واقعية ومثالية، محافظة وتقدمية، كلها في آن واحد. ولا ينبغي عَدُّ هذه الوحدة بين المختلفات مجرد رصف للمتناقضات وإضافة إلى المضافات لأنَّها في هذا التركيب لا تقوم فقط على تقدير الجرعة المناسبة والتدرج والتوازن والانسجام، وهي ليست فقط كمالاً في الجهد المعقول يخدم النزعة الأخلاقية في مختلف علاقاتها، بل إنَّها بناء عضوي حقيقي تتعاون فيه العناصر كلّها وتتساند الوظائف كافةً. وكذلك اكتمال العقل بالإيمان واعتماد الإيمان على العقل ومراقبة الفرد حسن سير الحياة الأخلاقية العامة وإن كان مكلفاً بمسؤوليته الخاصة[26]. إنَّ علم الأخلاق هو أحد أقسام الحكمة العملية والفن الباحث عن القدرات الإنسانية المتعلقة بقواه النباتية والحيوانية والإنسانية، ليميز الفضائل عن الرذائل ليستكمل الإنسان سعادته العلمية بالتحلي والاتصاف بها، فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام من المجتمع الإنساني، وإنَّ مفردة الملكات تعبير آخر عن الهيئات الراسخة في الإنسان، فالراسخ من القدرات يسمى قدرة وغير الراسخ هو الحال والأخلاق، بمعنى أن العقل العربي تحكمه النظرة المعيارية إلى الأشياء، بما في ذلك نظرته إلى العقل نفسه. والمقصود بالنظرة المعيارية ذلك الاتجاه في التفكير الذي يبحث للأشياء عن مكانها وموقعها في نظام القيم الأخلاقية الذي يتخذه ذلك التفكير مرجعاً ومرتكزاً له، ومن هنا ذلك الإجماع في الثقافة العربية على اعتبار العقل أساساً للأخلاق[27].

وفيما يخص مصدرية القيم الأخلاقية في الرؤية الإسلامية، ترتبط إشكالية الضمير الخلقي والواجب الأخلاقي، وإشكالية مصدر القيم الأخلاقية

بالميتافيزيقيا، فالأخلاق ليست مستقلة بل مرتبطة بالدين وبالميتافيزيقيا، فهي لا تعالج بصورة مستقلة إلا من وجهة نظر منهجية، فالمنهج هو الذي يفرض على صعيد التحليل المؤقت فقط معالجة المشكلة الأخلاقية بوصفه موضوعاً قائماً بذاته. أما في الحقيقة فإن الأخلاق متداخلة مع الدين والميتافيزيقيا[28]. والميتافيزيقيا في الفلسفة الإسلامية قوة محركة للإنسان في علاقته بالطبيعة والمجتمع والتأريخ. ويصبح سلوك الإنسان حين يكون ضمن أفق فصل الحياة الإنسانية عن الغيب مجرد نشاط تقني، ولا يتجاوز الإطار الضيق إلا عندما يصبح سلوكاً معبراً عن خلافة الإنسان لله في الأرض، خلافة على مستوى الفرد والأمة والإنسانية كلها، فعندئذٍ يصبح الفعل الإنساني مرتبطاً بمعنى الوجود[29]. وترفض الأخلاق في الإسلام العفوية، كما ترفض الخضوع للضغط الجماعي، فالعاطفة تخضع للعقل ولا يمكن أن تكون وحدها أداة للتقييم. وتكمن حقيقة الأخلاقية في الإنسان من حيث هو ذات واعية. وتلتقي الطروحات مع طروحات كانت في هذا الجانب الذي جعل الإلزام معياراً للأخلاقية، وتختلف مع كانت عند مصدر الإلزام الذي يستمد مصدره من العقل، في حين يستمد مصدره في الإسلام من التعالي. كما ينفي تدخل العاطفة في الأخلاق، في حين لا تنفي الرؤية الإسلامية العاطفة، لكنّ يرتبط دورها بالعقل والدين في المجال الأخلاقي[30]. إنَّ مصدر القيم الأخلاقية هو الله تعالى على الإنسان تلقيها والإفادة منها وإتباعها لأنَّ بخلافها ليس سوى الضلال وربما يعني هذا وجود واقعين اثنين، واقع يحتضن القيم الأخلاقية ويتبعها، وآخر لا يتبعها بصرف النظر إن كان يؤمن بها أم لا، ويترتب على هذا فهم جديد إذْ تصبح الضرورة هي ضرورة انصياع الواقع للقيم الأخلاقية وانسيابها في الواقع ويصبح التجاوز الإيجابي باتجاه فهم القيم الأخلاقية لتطبيقها في الواقع، وهذا يعني إمكانية كبيرة في تنوع التعامل مع القيم الأخلاقية بعيداً عن الجمود والتقوقع [31]. إنَّ مصدر القيم الإلزام الأخلاقي، فليس هناك إلاَّ مصدراً واحداً أقربهما إلى الناس أقلهما نقاءً، ذلك أنَّ هذا النور المكمّل ليس قريب المنال، ولا سلطان له علينا، وليس له معنى أخلاقي، إلاَّ من خلال ضميرنا الفردي، شريطة أن يعترف به، وعقلنا الإنساني هو الذي يأمرنا أن نخضع للعقل الإلهي [32].

وتركز الطروحات على مفهوم الأخلاق التي لا ينظر إليها من زاوية الأوامر والنواهي الدينية في معناها الظاهر منعزلة عن النسق العام للقيم والمفاهيم الإسلامية، فهذه النظرة الجزئية قد تجعل الباحث يضع الأخلاق الإسلامية ضمن أخلاق الضغط، وأخلاق الضغط تعني نفي ذات الإنسان كذات واعية ومسؤولة لا تتلقى الأوامر فحسب بل تستبطنها عن اقتناع داخلي. لا تتمثل الأخلاق في الأوامر والنواهي الدينية وحدها منعزلة عن الجوانب الدينية الأخرى، فالأوامر والنواهي لا معنى لها دون عقيدة، وما تتضمنه من نية وما تقتضيه هذه القيم والمفاهيم الدينية من ذات واعية ومسؤولة، فلا يمكن تصور نية دون ضمير خلقي أي دون قوة ذاتية تقتنع بإلزامية القيم الدينية الأخلاقية وقدسيتها، فالقيم الأخلاقية إذا لم تستمد مصدرها من الغيب تصبح مجرد مفاهيم نظرية، أو تصبح مجرد قيم اتفق عليها المجتمع، أو مجرد أوامر يتلقاها الأفراد عن إكراه من مصدر خارجي، فلا يمكن لهذه القيم أن تبرر إلزاميتها. وتضع مرجعية الأخلاق في الرؤية الإسلامية القيم خارج أخلاق الضغط فالإيمان والنية هي مفاهيم وقيم تنتج عنها أخلاق مبنية على الاقتناع الداخلي النابع من ذات الفرد، ويعطي ارتباط الإنسان بالله للأخلاق طابعاً خاصاً، فهناك فرق جذري بين

الأخلاق في الرؤية الاجتماعية التي تجعل الضمير الجمعي مصدراً للقيم ومصدراً للإلزام أي تجعل قوة مجردة لا هوية لها مصدراً للأخلاق، وبين ربط القيم الأخلاقية بالله من موقع خلافة الإنسان وما تتضمنه من تطلع من طرف الفرد إلى قيم مطلقة، فيصبح الفرد في وضعية تجاوز لذاته، والانفتاح على الآخرين من خلال انفتاحه على المطلق [33]. وفيما يخص الفعل الأخلاقي واتخاذ القرار، حيث يندرج الاختيار الأخلاقي ضمن وعي الإنسان لحاجاته الأخلاقية محاولاً من خلالها السمو بنفسه وتجاوز كل المعوقات التي تحول دون ارتقائه وتطوره، وتبرز أهمية أنْ يختار الإنسان المبادئ والأسس الأخلاقية من خلال الاعتراف بمسؤوليته، ويعني الاختيار الأخلاقي أن يكون الإنسان سيد نفسه في اختيار المبنى الأخلاقي الذي يناسبه للانخراط في المجتمع[34]. وعرضت الطروحات نقداً للنظرية الغربية في الإلزام الأخلاقي التي تعدُّ له مصدرين، أحدهما قوة الضغط الاجتماعي والأخر قوة الجذب الإلهي متناسية العنصر الفردي لإنسان باحث بفطرته عن الاستقلال، ومعتبرة أنَّ مصطلحي إلزام وأخلاق الواردين في تلك النظرية يناقض أحدهما الأخر، فمتى أصبح الإلزام قهراً شبه إجباري فإنَّه يفقد صفته الأخلاقية، والعكس أنَّ تلقائية الحب هي نقيض الإلزام. وليس هناك وجود للأخلاق الصحيحة في هذه النظرية لأنَّ الإنسان لم يكن شخصية مستقلة قادرة على المقاومة والتقويم والاختيار، ولكي تكون هناك أخلاقية لا يكفي أن يتمثل المثل الأعلى على أنَّه هدف متوثب ولا على أنَّه آمر البيئة، بل يجب أنَّ يمر كلاهما في الضمير ويتعرض لعملية إنضاج حقيقية ليكون قائماً على مبادئ أخلاقية يقويها ويفرضها العقل، فمادامت جاذبية المثل الأعلى ليست صبغة الأمر الصادر عن العقل ولم تكن حلماً واهماً، فإنَّها تظل محكومة بنوع من الإحساس بالجمال، ومهما بلغ هذا الإحساس بالجمال من النبل فلن يكون مبدأً أخلاقياً، وكذلك الحال في كل خضوع لا مسوغ له إلاَّ إذا كان صادراً عن نوع من الإرهاب الجماعي. ولذا فإنَّ القرآن يقف دائماً ضد إتباع الهوى أو الانقياد الأعمى والذي وصفتهم الطروحات بأنهم أعداء للأخلاقية، ففي الإنسان من كونه عنصراً عقلياً أي عنصراً أخلاقياً، وفي الأمر الأخلاقي عنصر أخر هو العقل والحرية والمشروعية، وهذه العوامل الأساسية غفلت عنها النظرية الغربية. اهتمت النظرية الإسلامية المستخلصة من القرآن الكريم بالقدرة الفكرية لما لها من دور في تصور الأمور والحكم عليها، و يكمن جوهر الأخلاقية في نشاط الذات المفكرة، فقد تلقت النفس البشرية في تكوينها الأولي الإحساس بالخير والشر، كما وهب الإنسان قدرة اللغة والحواس الظاهرة وزُوِّدَ أيضاً ببصيرة أخلاقية، كما أهدي للإنسان طريقا الفضيلة والرذيلة[35]. ويجب دمج الأخلاق ضمن رؤية الكون والإنسان. إن علاقة الإنسان بالكون ليست علاقة تمرد وعبث بل هي علاقة لها معنى ودلالة، إنها علاقة العقلانية الصارمة التي تنبع من التوحيد إله واحد وبشرية واحدة، ومصير واحد يتمثل في السير نحو الله، فمعنى الوجود المرتبط بخلافة الإنسان هو الأساس الميتافيزيقي للقيم الأخلاقية، وهو أساس كلّ عملية تغييرية. تعني عقيدة التوحيد بصفات الله وأخلاقه لا بوصفها حقائق عينية منفصلة عنا بل نتعامل مع هذه الصفات والأخلاق بوصفها رائداً وهدفاً، أي بوصفها مؤشرات للقيم الأخلاقية، فالله سبحانه ليس مجرد مُسَلَّمَة وليس مطلقاً محايثاً للتأريخ بل الله حي متعالٍ، والإنسان يرتبط بالله من موقع التخلق بصفاته، ومعنى هذا أن القيم الأخلاقية لا معنى

لها ولا قيمة لها إلا بفضل علاقة الإنسان بالله. الأخلاق في الرؤية الإسلامية ليست أخلاقاً مجردة بل هي أخلاق تتجسد في الواقع بصورة تدريجية ومستمرة، هي أخلاق تأخذ صورة مشروع مستقبلي، لأن علاقة الإنسان بالله هي علاقة اكتشاف مستمر وحركة مستمرة بفضل تخلق الإنسان بصفات الله[36]. أنَّ الأخلاقية ليست في حقيقتها مصدراً اجتماعياً، فالتقدم في المجال الأخلاقي مرهون باستبطان الإفراد للقيم الأخلاقية واقتناعهم بإلزاميتها، فلا وجود للأخلاق خارج الفرد كذات واعية[37]. مركزة على أهمية القيم وفعالية الروح، فالروح إذا ما اندفعت بالإنسان فإنما تندفع به لتوظف طاقاته وفكره طبقاً لمثل أعلى ينشر لونه وذوقه وفعله وأسلوبه على رقعته الجغرافية والبشرية معاً. فإذا ما ارتسمت معالم هذه الرقعة، فذلك هو المجتمع في صورته المتحركة يترك بصماته على صفحة التاريخ فناً وقيماً أخلاقية وإنجازاً، وتلك هي الثقافة في صورتها التاريخية. ولابد من التأكيد أن تنبع السمة العامة لهذه الحضارة من قواعد الأخلاق التي تضع في الأولوية كرامة الإنسان وحقه في العيش الكريم، وما ذلك إلا التعبير الواقعي عن روح القرآن الكريم[38]. نستنتج مما سبق ارتباط مصدرية الأخلاق في الرؤية الإسلامية بالخالق وصفاته، وعلى تفسير مهمة الإنسان بالالتزام الأخلاقي.

3- مؤشرات الإطار المفاهيمي

تتناول الفقرة كلاً من مؤشرات الفعل الأخلاقي في العمارة عموما، ومؤشرات بنية العمارة النمطية الممثلة بالعمارة العربية الإسلامية والتفكيكية الممثلة بالعمارة الغربية.

أ- مؤشرات الفعل الأخلاقي في العمارة

أوضحت الطروحات أن مرحلة ما بعد الحداثة يمكن وصفها بحقبة عودة الاهتمام بالأخلاق في العمارة سواء كانت أخلاقاً مجتمعية أو فردية مؤكدة الحاجة لالتزام المجتمع بالحدود والقواعد، إذْ إنَّ المدينة التقليدية تعبير مادي للاعتبارات الأخلاقية، وللفردية والعاطفية في الأخلاق وما وراءها من سلطة وقوانين. وهناك سلسلة من العلاقات التي تربط العمارة بالأخلاق، منها إعطاء الفضيلة في العمل معنى لذلك العمل من خلال تحقيقه النهاية المنشودة التي تتطلب وجود عنصر التكافل والتعاون وحسن النية، كما يعبر التصميم عن متطلبات الجمهور ومدى تحقيق المثل والقيم الأخلاقية الجماعية لمستخدمي التصميم، بعد تحديد شخصية المصمم الفردانية وتغليب الموضوعية [39]. إنَّ العمارة هي تشكيلة من التطبيقات ذات البعد الأخلاقي المتأصلة ضمنياً في بنيتها لتحقيق كينونة أفضل للإنسانية بالحفاظ على ثلاث قواعد أساسية يمكن تحقيق فعل معماري أخلاقي خلالها وهي كما يأتي:

– إضفاء الأفكار الأخلاقية وطرائق الاستنتاجات وتشخيص الطريقة المثلى لتحديد نوع المعيار الأخلاقي في العمارة، وهي الجزء الأساس من الوعي والإدراك للمحاكاة بين النظريات الأخلاقية عامة والمعمارية، إذْ تتأسس الأخلاقيات Ethics على نتائج الفعل، وتقوم الأخلاق Morality على قوانين ومبادئ ونظريات الفضيلة والاتفاق الجمعي.

– توفير قاعدة علمية لاستخلاص معيار أخلاقي متأصل في العمل المعماري عن طريق فهم طبيعة التخصص ومسؤولية المتخصصين وصيرورة العمارة التي تعدَّ المنطلق الأول لبداية اختبار التعهدات الأخلاقية، وهذه يمكن تطبيقها كقاعدة أساسية على

المباني الخاصة، والعامة، وتتمتع هذه القواعد بمرونة عالية في إمكانية تحقيق النتائج ضمن معيار أخلاقي مشترك.

– إمكانية تطبيق المعايير التي تم تحديدها على حالات دراسية مختلفة في الطبيعة والمنهج الفكري والمرجعية الفلسفية المستندة على المذاهب الأخلاقية المختلفة لدراسة مقياس تباين تأثر المعايير الأخلاقية المحددة الفعل الأخلاقي للنتاج المعماري.كما ذكرت الطروحات الغربية إلاَّ أنَّ هناك ثلاثة مصادر أساسية للأخلاق في العمارة:

– المهندس المعماري، كمتخصص معاصر، تقع عليه مسؤولية تدفعه ليكون دائماً في المقدمة، وعلى تواصل دائم بمستجدات المعلومات العملية والنظرية المعقدة مهارات التخطيط والتصميم كلّها والتي تشكل جوهر المعماري، وعليه تقع مسؤولية بناء العادات الخاصة بالمجتمع اعتماداً على مهاراته من خلال العمارة، هذا ما يفهم من خلال تعريف المعماري واستعماله الصحيح لهذا العنوان في التطبيقات العملية، فعليه يقع واجب أخلاقي Ethical duty لتحمل المسؤولية، فعمله يعدُّ من الممارسات ذا الأخلاق الضمنية من أجل تحسين حياة المجتمع.

– صيرورة العملية المعمارية التي تبدأ من مرحلة الخطوط العامة للتفكير الأولي لإعداد تصاميم تحقق العلاقات الإنسانية لتتحقق فيما بعد تطبيقياً، ويجب أن يكون القرار أخلاقياً في كل مرحلة من مراحل العملية التصميمية، لأنَّ قيم المصمم والزبون والمجتمع تتداخل كلها لخلق النتاج المعماري.

– الأخلاق المتداخلة ضمن الأبنية، تصمم الأبنية وتشيد وفقاً لإحكام المجتمع المعتمدة وقيمه، وتقيم جودة الأبنية بطريقة ذات صلة مباشرة بالأمكنة والثقافات التي تبنى منها هذه الأبنية، ولكن ماذا لو لم تكن الأبنية مستوفية للشروط الأخلاقية المتمثلة بالمتانة ؟ أو لم تمتلك تركيباً سليماً؟ وهكذا يمكن القول: إنَّ للبناية أخلاقاً بطريقة أساسية واحدة، وهي أن تملك الفضيلة كما يمتلك المصمم خصائص إيجابية معينة، فضلاً عن التزاماته تجاه البيئة الطبيعية وهكذا تمتلك العمارة طبيعة أخلاقية، والأخلاق المعمارية لها خصوصية كونها تتضمن مبادئ التصميم والنية والهدف وراء المشروع والمبادئ المعمارية النابعة من العلاقات والالتزامات المفروضة على المهندس المعماري التي تعزز الخطاب الفكري والإيديولوجي الذي ينعكس تأثيره في تقييم الفعل المعماري انطلاقاً من القيمة الاعتبارية لمفهوم الجمالية في مرجعيته المطروحة فكرياً في الفعل الأخلاقي .[40]

أطلقت الطروحات مفهوم " العدسات " Lenses التي يمكن من خلالها اختبار أخلاقيات العمارة وهي عدسة:

– هدف العمارة الذي ينبغي الاهتمام به لتحديد إنشاء المبنى، هل هو اجتماعي أم ثقافي، وهل يقوم على هدف إنساني؟ وما النية والقصد من إنشائه؟ هذه كلها ليست أحكاماً عملية أو وظيفية بل أخلاقية في بعدها العميق، وهناك أهداف أخرى للعمارة قد تخدم أغراضاً سياسيةً أو اقتصاديةً قد لا تتفق مع رغبات المجتمع وتفرض عليها رغم كونها لا أخلاقية أحياناً، يكون الحكم الأخلاقي ضرورياً لتقييم مشروع معماري من ناحية الهدف للوصول إلى الأسمى لتحقيق فضيلة أخلاقية، تضفي طبيعة المشروع كونه مستشفى، أبنية تعليمية، ملاعب رياضية، دور رعاية الفقراء وفاقدي المأوى، دور رعاية المسنين، بعداً أخلاقياً يمكن قياسه من منطلق الهدف أولاً، أي تحقق العمارة ضمن محيطها فعلاً أخلاقياً حتى لو أدت وظيفتها ضمن

مشروع محدد وفي مجتمع معين لتخدم قضايا إنسانية بقوانين أخلاقية وقيم اجتماعية.

– الإنتاج المادي، فالعمارة نتاج خاضع لقوة المادة وتأثيرها فيه، وإلى التوقعات التي تظهرها هذه المواد حين تحويلها إلى أشكال معمارية، وإذْ إنَّ أحد تعريفات العمارة هي إعادة تشكيل البيئة الطبيعية لصنع عادات مجتمعية تتحول إلى عادات مكتسبة وراسخة بمرور الزمن، لذا تعدُّ عملية تقييم العمارة من منطلق قياسها حسب المواد التصنيعية الداخلة في الإنشاء واختبار قابليتها للاستدامة وتحقيق عمارة ايكولوجية وفحص مدى استغلال الإمكانيات الكامنة في المادة حين استخدامها في المبنى لبلوغ أقصى حد فضيلة أخلاقية.

– الجمالية، تربط جماليات العمارة بالفن وبفلسفته والذوق الرفيع والارتقاء بالإنسانية. وتكون الأخلاقية في العمارة أكثر عمقاً لأنَّ الفن مليء بها، فالرغبة في صنع مبنى جميل لا يشبه صنع مبنى مجرد، فضمن هذه القاعدة إنَّ إضافة شكل جميل ذي بعد خيالي متطابق مع معتقدات مجتمعه ستكون خاصية جمالية بقوة أخلاقية.

– خطاب العمارة وإيديولوجيتها، وتهتم هذه الفقرة بالخطاب الفكري وإيديولوجيا العمارة بوصفها جوهراً أساسياً آخر في أخلاقيات العمارة، فالحداثة فرضت خطابها الفكري على طابع العمارة آنذاك وأنتجت أبنية تمثل روح العصر منفصلة عن التاريخ والقيم ومتحررة من قواعد الأخلاقية المعمارية أساسياتها المعروفة، وهناك نموذج آخر يحوي على بعداً أخلاقياً وهي الإيديولوجية التي تعتمد التصاميم المستدامة باستخدام مواد قابلة للتدوير وإعادة التصنيع وعدم المساس بقدسية البيئة الطبيعية، وهذه قد فرضت خطابها الفكري على العمارة.

– الممارسات العملية، يعرف ال Praxis بأنَّه الفعل، التطبيق مثل تطبيقات التقنية أو الفن التي تسعى لتطبيق النظرية. ويعرف كذلك بأنَّه نموذج أو مجموعة نماذج تستعمل لتطبيق الموضوع. تعني هذه الفقرة بالفعل الأخلاقي في التطبيقات المعمارية، لأنَّ العمارة هي تطبيق أو مجموعة تطبيقات للوصول إلى الفن معتمدة التاريخ والنظرية مرجعا لها، والتقنية أساساً أو وسيلة للحصول على جمال وانتظام النتاج، وتصميمها نحو إنسانية أكثر رقياً وإجراءات اقتصادية، وكذلك حضور ورمزية العمارة ضمن مرجعيتها. وهذه الفضيلة تم اعتمادها في فعل التطبيق ونتائجه على أن يكون الوعي هو الجزء الأساسي في فهم التداخل بين الأخلاق والعمارة، وتحديد نقاط الفعل الأخلاقي وتطبيقاته على النتاج [41].

أوضحت الطروحات الغربية مبادئ وأسس إعلان هانوفر التي تقدم الخطوط الأساسية والتوجهات الأخلاقية الشاملة، منها: الإصرار على الحقوقِ الإنسانية والطبيعية للتعايش في شروط مستدامة ومتنوّعة ومساعدة وصحّية، وتعريف الاعتقاد المتبادل لتتفاعل عناصر التصميمِ الإنساني معاً اعتماداً على العالم الطبيعي، وتوسيع اعتبارات التصميم ليشمل المعاني الضمنية كلّها، واحترام العلاقة بين الروح والمادة، وخلق أشكال أمنة ذات قيمة طويلة الأمد، وإلغاء مفهوم النفايات، والاعتماد على تدفق الطاقة الطبيعية، وفهم محددات التصميم [42].

وتطرقت الطروحات العربية إلى مفهوم العمارة المقدسة ومبررات لجوء الإنسان لإنشاء مأوى له، إذْ يولد الإنسان مع نقص متأصل في كيانه البيولوجي، ولسد هذا النقص أقدم على ابتداع مصنّعات وتصنيعها، والعمارة هي إحدى هذه المصنعات. تقترن رؤيتنا لشكلية العمارة ومختلف المُصنّعات الأخرى

وتصورنا لها وتعاملنا معها بالوظيفة التي نحملها لها، كأداة نسخرها في إطفاء حاجات متعددة سواء أكانت الوظيفة أو الحاجة متأصلة في وجودنا البيولوجي، أم مبتدعة من قبلنا. إنَّ مبررات لجوء الإنسان لإقامة منشآت صرحية كالأهرامات والزقورات والجوامع والكاتدرائيات التي ابتدعها فكر الإنسان كبنى مقدسة بالنسبة إليه، على أنَّها حاجة رمزية متأصلة في تكوين الفكر تحفزه للإنفاق بمثل هذا القدر من الطاقة والمال على تلك المنشآت، مقارنة بمساكنه البسيطة، وبقدر ما يرتبط مصنّع ما بقوى مقدسة ويقترن بها يكتسب مقاماً مقدساً هو بذاته، والمعبد مثال للمصنّع المقدس هنا، إذاً العمارة المقدسة هي البنية التي توظف كأداة تعبر عن كيان مقدس ما، تمثله أو تقترن به أو تجسده،.وتصنف الطروحات الحاجة إلى ثلاث مقولات رئيسية هي الحاجة النفعية والرمزية والجمالية.[43]

ب- مؤشرات بنية العمارة النمطية

لا يأتي تميز النتاج من خلال الانقطاع عن الماضي من تاريخ وتراث وقيم وأعراف، وهذا لا يعني النسخ أو التقليد الحرفي، وذلك لكون المفاهيم المنتخبة هي قيماً مرتبطة بالجوهر المتمثل بالمطلق أو المتعالي وليس بالمظهر، كمجموعة من الأفكار والقواعد الثابتة التي لا تتغير رغم تنوع النتاج المنبثق منها واختلافه. يقود هذا إلى استثمار فكرة النمط Type كمفهوم يرتبط بالقيم الروحية الثابتة، وبالتحديد مفهوم النمط الأعلى Archetype الذي يشتمل على قواعد توجه العملية الإبداعية المولدة لما هو متميز من النتاجات، مع الأخذ بالحسبان الإطار الزمني المناسب للمرجع التاريخي لهذه الأنماط عند تشكيل النتاجات المتميزة. وهذا ما يضفي على مفهوم النمط الأعلى صفة الثبات؛ وبذلك فهو يسمو فوق القيم التقليدية المحلية، وتبعاً لهذا تم تحقيق تفرد النتاج من خلال استثمار الأنماط التاريخية والثقافية بصيغة علاقات فكرية ومبادئ وقيم مفاهيمية جوهرية لتحقيق الأصالة والاستمرارية الحضارية لهذه النتاجات [44]. النمط هو الشكل الأولي المبسط أي النواة الشكلية التي تنطلق منها التطورات والتحولات المنتجة للعمارة المحلية بمختلف ألوانها، وإنه عام وإيحائي، ويتميز النمط عن النموذج Model باعتبار الثاني خاص ومحدد. يميز النمط بشكل عام صنفاً من الموجودات المعمارية المرتبطة بمزيج معين من الممارسات الاجتماعية، وهو نتاج جوهري معين له ارتباط باستمرارية التركيبات الاجتماعية. أمَّا النمطية Typology فتعرف بأنَّها علم الأنماط أو المنهجية البحثية التي تتناول النمط كموضوع ودراسة تحليلية. وتدخل النمطية في مجال العمارة بالعديد من الارتباطات التاريخية والمجتمعية والفكرية والبيئية والتقنية،ويمكن تعرّف مفهوم النمط والنمطية من خلال ربط النمط بالعديد من الثنائيات منها:

- النمط والتطور الحضاري، اختلفت الطروحات في تحديد مواقع أصول الأنماط ضمن التطور الحضاري، وتراوحت بين موقفين رئيسيين هما: عَدَّ الأول تشكل الأنماط الأولية البدائية في بداية تكون الحضارة ونشوئها، وعَدَّ الثاني الأنماط حلقات لاحقة في حقب وسيطة وحديثة ضمن السياق الحضاري.
- أصول النمط والمجتمع، تباينت وجهات النظر بصدد مدى ارتباط أصول الأنماط بالمجتمع حول محورين، أكد الأول ارتباط الأنماط بعامة المجتمع.
- النمط والوظيفة، تعددت الطروحات بصدد احتمال ارتباط أصول الأنماط بنوع وظيفي محدد بموقفين أساسيين، أكد الأول عدم ارتباط النمط بنوع وظيفي محدد. وأكد الثاني ارتباط النمط بنوع وظيفي محدد، إذْ تعتمد ولادة النمط على سلسلة من الأبنية التي تملك فيما بينها معادلة واضحة لمفهوم المماثلة الوظيفية.

– أصول الأنماط، تراوحت أصول الأنماط بين الطبيعية والإنسانية والفلسفية أو غير المعمارية، فالطبيعة ذاتها في تجريدها وتبّنيها كنموذج طبيعي سيكون نمطاً أصلياً. وإنَّ جسم الإنسان كان أصل الركيزة أو النمط المتكررPrototype لمبادئ الجمال والتناسق والتناسب.

– النمط والمعنى، يمثل النمط الأسلوب التعبيري الأكثر فكرياً باستعمال العناصر التأسيسية للعمارة، و يبدأ استثمار لغة العمارة من فهم البعد النمطي. يمثل التصميم النمطي عملية مزدوجة فهو يحول أسلوب الاستيطان داخل كينونة نمطية أولاً، ويحور هذا النمط ليتلاءم ظروف الزمان والمكان ثانياً، فالخطوة الأولى تنشئ لغة العمارة في حين تجعلها الثانية تتكلم.أي إنَّ النمط وسيلة تواصل معنوي، وأداة تعبيرية عن المعنى.

– النمط وتوليد الشكل، أشارت الطروحات إلى دور النمط كأداة في توليد الشكل، مشتركة في ثلاثة محاور هي نوع الخصائص النمطية المستثمرة، ونوع الأنماط المستثمرة، والآليات المعتمدة في توليد الشكل. ومن سمات البنى العميقة وجود أنماط جينية أصلية راقدة في قاع البنى العميقة، لها القابلية على توليد أنماط ظاهرية تطفو على السطح، بعبارة أخرى هناك Genotype تولد Phenotype لها صلة تاريخية عرفية مجتمعية مكانية.

– النمط وانتماؤه الزماني، تباينت الطروحات الخاصة بالموقف من الانتماء الزماني للنمط حول محورين رئيسيين،الأول دراسة النمط المستمر عبر الزمن مؤكداً الاستمرارية التاريخية للأنماط الأصلية على أنَّها الأنماط التي تبقى ثابتة عبر التاريخ، والثاني دراسة النمط المحدد ضمن مدة زمنية معينة وضرورة ارتباط النمط بمدة زمنية محددة[45] .

وتطرقت الطروحات إلى العديد من القيم التي تتفق والفكر الإسلامي فيما يخص نمط المسكن ذي الفناء الداخلي مؤكدة أنَّ هناك ظروفاً جديدة أملت على المسلم استمرارية استعمال هذا النمط المعماري وتطويره وإضافة عناصر أخرى إليه ليلبي الاحتياجات الجديدة التي نشأت بظهور الدين الإسلامي. تتوافق فكرة الفناء مع طريقة عيش الإنسان المسلم وسلوكه وعلاقاته الاجتماعية، وإن الهدف الرئيسي ليس تبني الفكرة فقط وإنّما تطويرها وتنظيم العناصر حول الفناء، وبهذا يمكن القول إنَّ تصميم المسكن الإسلامي في هذا النمط قد نبع من الداخل إلى الخارج، والفناء هو في الحقيقة قلب المبنى علاوة على أن المعمار المسلم قد استلهم من آيات القران الحكيم العديد من الأفكار كالتنوع والإيقاع والاتزان، التي يعدُّها بعضهم معروفة له من الموروثات الحضارية السابقة. تعدُّ العمارة تعبيراً حقيقياً عن الشخصية الإسلامية، وقد اعتمد المعمار المسلم مبادئه وأسسه من الشريعة الإسلامية على مستوى الفكرة الأساسية وحتى الزخارف [46].

اتسمت العمارة العربية الإسلامية بارتباطها بالمعاني والمضامين من خلال المقياس الإنساني المتمثل باحترام مقياس الإنسان مع اللجوء إلى تجزئة العناصر وتعددها من دون المساس بوحدة التصميم كالمقرنصات والزخارف وتعدد الأعمدة وتقسيم السطوح والتدرج، والانفتاح نحو الداخل المتمثل بوجود الفناء الداخلي المعبر عن طبيعة الحياة الاجتماعية والمناخية، وبأسبقية الداخل على الخارج والمضمون على الشكل والجوهر على القشرة. كما اتسمت العمارة العربية الإسلامية بالمرونة وقابلية التغيير، ومن خلال إضافة وحدات متنوعة الأشكال والأحجام، والإيقاعية والهندسية وباعتماد الأنماط

الهندسية والتفاصيل الزخرفية مع وجود محورية عالية وتماثلية واضحة على محور واحد أو محورين، لخلق أشكال هندسية نقية، حيث ثبات الشكل مع تنوع الوظيفة وعلى مستوى النمط، والتجريد والرمز. وجاء التجريد متوافقاً مع تعاليم الإسلام في الابتعاد عن التصوير، واللجوء إلى الزخرفة الهندسية والخط، والوحدة والتنوع المستمدة من وحدة الإله [47].

وبذا يمكن تحديد أهم المفردات الشكلية الفاعلة في العمارة المحلية التقليدية بالسمات التخطيطية للشكل المتمثلة بالتوجه نحو الداخل والاحتواء الشكلي، والسمات التصميمية للشكل بانفتاحية شكل الفناء الوسطي وتوجيه النظر نحو السماء، أمَّا العناصر الشكلية البصرية فتتمثل بالصلادة والتناظر والمركزية والاتجاهية والنسب الشكلية الإنسانية، وأخيراً تتمثل العناصر التشكلية مادياً بإشكال الشناشيل والأعمدة والفناء والأقواس والزخارف والرواق .[48]

ج- مؤشرات بنية العمارة التفكيكية

ظهرت التفكيكية في العمارة ترجمةً لأفكار نيتشه العدمية في الحط من قيمة الميتافيزيقيا للوصول إلى مصارعتها والتحرر من كل القيم والأخلاق، فعلى المصمم المعماري خلع براءته، وإعلان إلحاده، انتصاراً للغرائز، مفجراً إرادة القوة. ويتضمن هذا حسب اعتقاد نيتشه أربع مراحل، الأولى يتراءى فيها انهيار الأخلاقيات مع تناقص سلطة الدين وكل نتاجات الوعي الأخرى، والثانية مرحلة الخضوع، وفيها يدرك أن القديم والجديد متناقضات أساسية، لا يمكن الجمع بينهما،فالقيم الأخلاقية القديمة وليدة الحياة في انحدارها، والقيم الجديدة وليدة الحياة في صعودها، ولكن لم يعثر المرء على دربه، والثالثة ظهور الأهواء الثلاثة الكبيرة متمثلة في الاحتقار والإشفاق والتهديم، فيعتدي المرء فيه على ذاته، والرابعة مرحلة الكارثة، حيث تقود العدمية إلى الكارثة، وإلى ارتداد البشرية حينما تسيطر على الناس عقيدة جديدة، ونفي عقيدة العودة الأزلية، ومن هذه الأفكار التهديمية المنفصلة عن الواقع والتاريخ والرافضة للمثل الأعلى الحقيقة، منبثقة عن نتاجات معمارية محطمة ومشوهة وغير إنسانية متضمنة اللا توازن والإزاحات والتشويش. تميزت العمارة التفكيكية عن توجهات ما بعد الحداثة في عدم تعاملها مع القيم الأخلاقية. إنَّ التفكيكية مقلقة للفكر المعماري المحافظ، فهي تستند بقوتها في تحدي قوى الانسجام والوحدة والاستقرار وكشفها عن النقاء المكبوت مما يولد إحساساً بالقلق. لا يوضح الشكل في العمارة التفكيكية طبيعة الفصل والتقسيم بين الداخل والخارج، فالعلاقة بينهما أصبحت مشوهة،وأصبح الشكل الهندسي شيئاً محطماً، ليس بإزالة بسيطة للجدران وإنّما تجزئة المألوف عن غيره، والداخل عن الخارج[49].

تعمق مصطلح العمارة التفكيكية في نهاية ثمانينيات القرن الماضي، كتعبير رمزي ونظري عن وصف مجمل تجارب تصميمية ترسخت في الممارسة المعمارية العالمية مكتسبة منطلقات حلولها التكوينية بأجواء الذائقة الفلسفية التي روّج لها دريدا، وبحسب توصيفه فإن العمارة ليس طرازاً معمارياً، وإنَّما وسيلة لدى المصممين، بها يمكن الدنو من أساسيات المبنى. إنَّ التفكيكية ليست بالضرورة تقويض المباني القائمة، بل خلق تضارب بين ما بات أمراً عادياً ومألوفاً لدى المرء في إدراك اللغة والمعنى، وبين ما يراه أو يشاهده. قدمت الطروحات استراتيجية جديدة في قراءة تتخذ من التفكيك أسلوباً لها، إذْ يحرف كل شيء باتجاه الاختلاف، ومن أهمها الثنائيات الفكرية التي يتمحور حولها الفكر الميتافيزيقي الغربي مثل الخير والشر، الواقعي والخيالي، الكلام والكتابة.. الخ، وكذلك

تمركز الفكر الغربي حول ذاته. تعدُّ التفكيكية منهج دريدا النقدي، وهي في معناها المطلق نوع من التفكيك لبناء النص الذي اشتق منه المصدر الصناعي "فك الارتباط" وإذا تم ذلك في اللغة، فهو تفكيك الارتباطات المفترضة بين اللغة وكل ما يقع خارجها بمعنى إنكار قدرة اللغة على أن تُحيل إلى أي شيء أو إلى أية ظاهرة إحالة موثوقاً بها. وترتكز الطروحات على اللغة، معتبرة ارتكاب القراءات الميتافيزيقية والتقليدية أخطاءً شاسعة في طبيعة النصوص، فالقارئ التقليدي يظن أن اللغة قادرة على التعبير عن أفكار دون أن تغيرها، إذ حسب هرمية اللغة تمثل الكتابة دوراً ثانوياً في الكلام، ومؤلف النص هو مُصدّر معناه. غير أن أسلوب القراءة التفكيكي يهدم هذه الافتراضات ويتحدى فكرة أن النص له معنى موحد غير متغير لميل الفكر الفلسفي الغربي إلى الافتراض بأن الكلام هو المسلك الواضح والمباشر للتواصل. واعتماداً على اللسانيات والتحليل النفسي بوضع هذه الافتراضات اللغوية كلّها موضع التساؤل، لا يمكن قبول نيَّات المؤلف في الكلام بلا شرط، أي فتح إمكانيات تأويلية جديدة للنصوص بواسطة مصطلحات التفكيكية مبينة شرائح متعددة للمعنى لها دور عملي في اللغة، وأن اللغة دوماً في حالة انزياح. وفي محور " الكتابة والاختلاف" فإنَّ التفكيك شيء أقرب إلى الشعور منه إلى العقل والفكر، والتفكيكية هي دِين الجُمل الذي يحقق منهجا شعريا في قراءة الفلسفة متأثرةً بهايدغر ونيتشه اللذين كسرا الخط الفلسفي في سياقاته النظرية وحولا الفلسفة إلى ما يشبه المخيلة والأداء الشعري، ومن وجهة نظر دريدا فهو الشكل الكامل الذي يظهر فيه نص ما والذي لا يتشكل في وضعيته الثقافية والسياسية والاجتماعية فحسب، بل في مجموع المعاني والعلامات المحركة لهذا النص. إنَّ التفكيكية ليست فرعاً من المعرفة وليست منهجاً بحثياً، بل هي وقفة تساؤلية تجاه أغلب المظاهر الأساسية لإنتاج المعرفة التي تميل إلى التركيز على الانزلاقات في المعنى وعلى الفجوات والتناقضات التي تحدد بشكل حتمي عملية فهم النص برمته. زرع داريدا بذرة الشك في مختلف المنهجيات التقليدية التي تحاول طرح براهين متماسكة لحل الإشكال بهدف تصديع بنية الطروحات، إذْ ليس ثمة يقين أو مركز أو بنية[50]. تكتسب التفكيكية قواها من مصارعة وتحدي التجانس والوحدة والاستقرار مقترحة بدلها وجهات نظر مختلفة متمثلة باللاتجانس واللاوحدة واللاستقرار المعتمدة على استراتيجيات الانقطاعية، والتجزئة، والتحولات الشكلية، بوساطة تكسير القواعد الكلاسيكية للتكوين التي تشكل العلاقة المتوازنة الهرمية بين الأشكال وتكوين الوحدة، وقد أدى هذا التكسير إلى إنتاج هندسية غير تامة، وزيادة الأشكال الهندسية غير المستقرة وغير المنتظمة والتي فسرت كعلاقة داينميكية للأشكال ذاتها والتي وظفت الأشكال المتناقضة حيث تتصارع العناصر الخاصة بالشكل لتحرر المحددات المألوفة لذا اعتمدت التفكيكية على خصائص التشويش واللاموضعية والانحراف، والزيغ، والتشويه والالتواء. وتتبع الوظيفة التشويه بدلاً من الشكل، منتجة جماليات الخطر وشعوراً باللاهدوء بسبب مصارعتها للإحساس بالاستقرار وبحثها عن اللامألوف ضمن المألوف. وتتبنى التفكيكية مجموعه قرارات تصميمية لتحقيق أهدافها المعلنة منها مبدأ تعدد الطبقات، والانحراف، والتناقض ضمن الشكل وفيما بين الأشكال، واستخدام الأشكال المفروكة والاعتماد على مبدأ الاختراق وتمزيق القشرة عن محتواها، واللاتناظر، واللامركزية، والأرضيات الطائفة وغيرها [51].

ويتمثل الفكر التفكيكي بأنَّه أحد تجليات الفكر لما بعد البنيوية الذي أثر في أغلب الحقول المعرفية كالعمارة حيث يحلل ويشكك بالمفاهيم الثنائية المقبولة بشكل عام على أنَّها حجة بحد ذاتها وطبيعية، وكأنَّها لم تستحدث في لحظة ما من لحظات الزمان، ولأنَّها اتخذت كمسلمات فإنّها تحد من التفكير، حيث يعمل التفكيك بادئاً على الحافات لفضح المتضادات والافتراضات غير الحصينة التي تؤلف نصاً ما وتعريتها، ومن ثم يواصل طريقه قدماً في محاولة لإزاحة أكثر عمومية للنظام عن طريق تأكيد الأشياء التي ربما كان قد أخفاها أو استبعدها تاريخ الحقل المعرفي، مستخدماً الكبت أو الكبح أو القمع بتشكيل هويتها[52]. تهدف العمارة التفكيكية إنجاز بنية أو تركيب الظروف التي تنتزع أو تخلع أكثر الجوانب التقليدية والقمعية في مجتمعنا، وفي الوقت ذاته إعادة تنظيم هذه العوامل بأكثر الطرائق تحريراً وانعتاقاً. تستمد أصول النماذج المتميزة للعمارة المعاصرة بذرة إبداعها من خلال ترجمتها لذلك الفكر حيث تبدو الأجواء الذهنية Mental Atmosphere التي تقف خلف العمارة التفكيكية وكأنَّها وجدت بعدها الحقيقي من الحماقات التي تستنبط منها الفكر الذي تستند إليه [53]. ويحيل التفكيك بوصفه مصطلحاً إجرائياً إلى الاختلاف المرجأ، وهو الاختلاف الذي يحرر المتلقي من استحضار المرجع المحدد، تاركاً له حرية استحضار مرجع خاص أو تقويمه به لوجود اختلاف بين الدال والمدلول من جهة، والمدلول والمرجع من جهة أخرى. امتازت التفكيكية في العمارة بشكل عام بالتعقيد وبنمط جديد من التعابير الشكلية المرتبطة بالابتعاد عن المحددات التقليدية السابقة معتمدة مفاهيم الاضطراب والصراع والتشويه، لإحداث إثارة في الشكل لخلق معاني جمالية الحدث، وتمتاز الحركة التفكيكية بالفصل والتجزيئية المتطابقة مع ظروف العصر المتغير الجديد. قد تحمل نتاجات التفكيك الإبداع والسمات الجمالية ضمن سقف زمني محدد، إلاَّ أنَّها في الوقت ذاته غير قادرة على عكس عمقها الحضاري، وهي رغم لغتها وشدها لانتباه المتلقي، إلاَّ أنَّها غير قادرة في الدخول إلى العمق التاريخي في الذاكرة الإنسانية للعمارة. تستند التفكيكية إلى المرجع التي تقوم بتفكيكه والعبث فيه من خلال إدخال الغريب إليه ما يجعله غير قادر على المطاولة والاستمرار والتواصل في أغلب الأحيان بسبب امتلاك التفكيك قدرة عالية على الإبداع؛ مما يجعله يتميز بالتمرد والخروج على المرجع بصورة دائمة. وتفترض التفكيكية أنَّ تحديد المعنى بشكل دقيق هو شيء مستحيل، فهي كأحد توجهات الحداثة الجديدة الذاتية، فالنص لا يمكن فهمه والسيطرة على معناه إلاَّ من قبل المؤلف، وتفكر التفكيكية بالعمارة بكونها نصاً والذي بطبيعة بنيته لا يمكن تشكيل صورة واضحة عن المعنى، فكل شيء يظهر وكأنه يعني أكثر من معنى واحد .[54]

وقدمت الطروحات عدداً من الآليات التصميمية في العمارة التفكيكية كالتراكب والإقحام وتغير المقياس والتناقض، إذ تقوم آلية التراكب Superposition على وضع عدة نصوص من المراجع المختلفة بوساطة التراكب وبأسلوب خلق ليتم تقديم الناتج الجديد المرتبط بالأصول المرجعية والمبتعد عنها في الوقت نفسه، ويمثل هذا الابتعاد درجة انزياح الناتج عن الحل المتداول السابق. تمثل هذه الآلية خرقاً للأنظمة المتداولة السابقة، فالعمارة الناتجة تواجه الأصالة أو القيم المألوفة فهي لا تمثل المصدر الأصلي للصورة ولا الخطاب الخارجي وإنَّما تقدم معانيها لتمثيل العلاقات المتنوعة بين تلك النصوص

المتباينة، أمَّا آلية الإقحام Superimposition القائمة على تقديم الفن المعماري كطاقة مشوشة توقع الاضطراب الدائم فالعلاقة التقليدية بين الشكل والمعنى، والنص كتركيب للعمل هنا شرط أساس للنزوع أو الاقتلاع أو التشويش فهو لا يعتمد أي مصطلح للإشارة الذاتية والداخلية، إنَّه لا يمثل عملاً كاملاً ولا لغة أسمى وإنما تداخلاً مضطرباً ومتناقضاً نتيجة التكسير والتجزئة لإحداث التوتر والتعددية في القصد لإرباك واختراع إيحاءات مختلفة مع تأكل التركيب الايقوني التقليدي لفن العمارة بجمعها المتناقضات التي تحمل إيماءات ترفض وتقاوم التفسير، أما آلية تغيير المقياس Scaling الذي يعني تغيير الخصائص الشكلية والجوهرية للمصدر الأصلي الذي يجب أنَّ يتبعها تثبيت بعضها للإشارة إلى الأصل الذي انبثق عنه من خلال التركيز على الخصائص الجوهرية ضمن عملية التحولات فقد يكون هذا الأصل إطاراً فكرياً أو شكلياً يمثل تجسيداً لأنماط سابقة أو نماذج أولية. وآلية التناقض Contrast حيث يُفْهَمُ المصدر والغاية وتصورها بشكل عصري، فإعادة الترتيب تتم في مجال ومسافة تزيل العلاقة بين الزمن والحيز، ويمثل مفهوم الإدراك الحسي عناصر التقدم والتواصل، لذا قد يستمر المرء أو يتواصل على طول المحور المقابل للعناصر نفسها مرات عديدة، وهنا تنهار الوحدات المستقلة كالزمان والمكان والفضاء، فالفضاء يصبح مستقلاً عن الزمن، والحيز مستقلاً عن الشكل، وكلهم يعطي إمكانية ضم تناقضاته الخاصة في نظام مختلف، فالعناصر مفرغة من معناها الأصلي فهي ليست متضمنة في الثقافة والتاريخ والقياس والزمن فهي لا زمنية، لإمكانية، لا فضائية .[55]

يلاحظ مما سبق كيفية خلق النتاجات التفكيكية المزاحة بصيغة الاختلاف عن مرجعياتها لإنتاج نص معماري يتسم بالجدة لأنّه أسس على خرق الأنظمة التداولية في الأصول المرجعية المنتخبة من قبل المصمم. وتميزت الطروحات بكيفية اعتماد خصائص وقيم لا إنسانية كتوجه نظري يخرج عن الثنائيات ومدى تأثير الفعل الأخلاقي في بنية النتاج، ومن ثَمَّ ضرب البنى جميعها.

4- النموذج الفكري الافتراضي

أوضحت الطروحات السابقة اشتراطاً في الفعل الأخلاقي بأن يكون اختيارياً، ومطابقاً للوظيفة والواجب الذي يوحيه الضمير، وأن يمنح الفعل الأخلاقي الشعور بالجمال، وأن يكون هدفه هو الآخر لا الفاعل نفسه، وأن يكون المبدأ لصدور الأفعال هو الأحاسيس الإنسانية. وأكدت الطروحات أنَّ مفهوم النمط مجموعة من العلاقات الفكرية المشتركة، إذْ يرتبط النمط بقيم ذات موضوعية عالية ومجردة ترتبط بالأشكال الأساسية الأولية التي تمتاز بالوضوح والنقاء، كما يرتبط بالتعامل مع التاريخ والموروث المعماري ذي البعد الأخلاقي، ومن المهم فهم التقاليد على مستوى الأنماط وليس على مستوى الأشكال فقط. ويبدو من الطرح السابق أنَّ نمط الفناء الداخلي هو الممثل للعمارة العربية الإسلامية. وتمثل البنية النمطية الشكلية للعمارة العربية الإسلامية بعناصر شكلية نابعة من أنماط تاريخية واستخدام الأشكال الهندسية والعضوية وتجميع الأجزاء في كل متكامل، أما العلاقات الشكلية فتتمثل باعتماد المواد المحلية والقابلة للاستدامة والتدوير، وزيادة نسبة الصلادة في الجدران لخلق الخصوصية، وتعظيم علاقة الفضاء بالكتلة، واعتماد علاقات شكلية تامة. أما القواعد التنظيمية فتتمثل بخلق الاستقرار والوحدة والاتزان، والبساطة

والوضوحية في البناء الشكلي، والتناغم مع الطبيعة، والتقييد بالبناء الشكلي العقلاني. أمَّا المراجع الشكلية والآليات المعتمدة فتتمثل بالمراجع الشكلية المعمارية التاريخية المنمطة، واعتماد آليات التجريد بالتقليص والاختزال، وآليات محاكاة الماضي، واعتماد الوسطية بالتوجيه الأفقي والعمودي، واعتماد التوجيه نحو الداخل. وتتمثل سمات النتاج بالتماسك والالتحام والتضام، وثبات البناء الشكلي وتغير الوظيفة، واستثمار المقياس الإنساني، وتبني المواد المحلية. وتتمثل البنية النمطية الوظيفية للعمارة العربية الإسلامية بعنصري التنظيم الفضائي والحركة، إذْ تتمثل عناصر التنظيم الفضائي باعتماد النظام ووضوح التنطيق الفضائي، والتوجه الكتلي الأفقي للتنظيم الفضائي، والترابط الفضائي على أسس وظيفية واجتماعية.أما أنماط الحركة فتتمثل بالتدرج الهرمي الحركي من الخاص إلى العام، ووضوح النمط الحركي المعتمد، واستخدام المسارات والعقد العضوية، وعدم تطابق المحور البصري مع المحور الحركي، وانفتاحية الفضاءات باتجاه المحور. كما تتمثل المؤشرات الرئيسية للبنية التفكيكية الممثلة للاتجاه الغربي بإستراتيجية بلوغ المستحيل اللا أخلاقية والدعوة إلى تقويض اللغة وهدمها التي تعبر عن بنية الفكر التراكمي، فضلاً عن الغموض والإبهام وذلك بعدم وجود حقيقة مطلقة، والتأويل والترجمة المفتوحة للنص. وتمثل البنية الشكلية للعمارة التفكيكية بعناصر شكلية تعتمد الصرعات الزائلة واستخدام الأشكال المفروكة والاختراق وابتكار عناصر معمارية محطمة وأشكالاً متناقضة وتجزئة الكل إلى أجزاء وإقحام أجزاء على أخرى، وتتمثل العلاقات الشكلية بالتراكب والتشابك المسبب لانتهاك الخصوصية، وتعدد الطبقات والميل بزوايا مقلقة، واعتماد العلاقات الشكلية غير المستقرة، وتمثل القواعد التنظيمية بالتحرر من القواعد التنظيمية العقلانية، واللا تناغم الشكلي وتحدي الطبيعة. أمَّا المراجع الشكلية والآليات المعتمدة فتتمثل باعتماد آلية التجريد بالاختزال والتحوير وانشقاق الجدران لتحطيم الانغلاقية والفضاءات المتفجرة واللا جاذبية وآلية ضرب قيم الانسجام والوحدة والاستقرار. وتتمثل سمات النتاج بالتنافر والتشظي. أمَّا البنية الوظيفية للعمارة التفكيكية فتتمثل بالحركة والتنظيم الفضائي، إذْ يتمثل التنظيم الفضائي باللاتناظر واللامركزية وتعاشق التكوينات الفضائية المتباينة وتراكبها، وخلق فضاءات متشظية منتشرة، أمَّا الحركة فتتمثل بهدم العلاقة بين الداخل والخارج واعتماد مسارات معقدة ومتشابكة.

أوضحت الطروحات السابقة تعدد مؤشرات الوظيفة الأخلاقية في العمارة التي تمثلت بمؤشرات الفعل الأخلاقي ودوره في تشكيل البنية المعمارية النمطية من خلال الالتزام بالقواعد الأخلاقية، والبنية المعمارية التفكيكية من خلال هدم تلك القواعد والتحرر منها. وبعد عرض الإطار المفاهيمي الخاص بمؤشرات الفعل الأخلاقي والبنية المعمارية النمطية والتفكيكية وتحليله يبدو من ذلك تجلي سمات البنية المعمارية الشكلية التي تتأثر بالمتغيرات الرئيسية المتمثلة في العناصر والعلاقات الشكلية، والقواعد التنظيمية، والمراجع الشكلية والآليات المعتمدة، وسمات النتاج، والتنظيم الفضائي وأنماط الحركة في النتاج ذي البعد الأخلاقي، أما البنية الوظيفية فتتأثر بالحركة والتنظيم الفضائي. وبذلك يمكن بناء النموذج الفكري لدور الفعل الأخلاقي في بنية العمارة النمطية والفكيكية بالالتزام مقابل التحرر باعتماد المؤشرات البنيوية المذكورة آنفاً.

5- الإجراءات التطبيقية والعملية التحليلية

تتناول الفقرة كلاً من الإجراءات التطبيقية والعملية التحليلية

أ– الإجراءات التطبيقية:

تناقش الفقرة الخطوات والإجراءات التي اتبعها البحث في تحقيقه الحالي وصولاً إلى أهدافه، بدءاً بوصف المنهج المعتمد، والعينة البحثية، وأداة المسح، وقياس العلاقة بين المتغيرات، وانتقاء الوحدة التحليلية، والأوجه الإخبارية، وأخيراً معالجة النتائج وتفريغ البيانات وتحليلها. اعتمد البحث أسلوب الدراسة التحليلية الوصفية Descriptive Analytical method. كما تم اعتماد المشاريع المعمارية التالية كعينة بحثية ممثلة للمشاريع ذات البنية النمطية الممثلة للعمارة العربية الإسلامية:

– مشروع تطوير منطقة قصر الحكم، الرياض، المعمار راسم بدران ، 1985.

– مشروع متحف الفنون الإسلامية، الدوحة، المعمار راسم بدران، 1998.

– مشروع دار سكني في الرياض، المعمار عبد العزيز وإبراهيم أبا الخيل، 2000.

– مشروع القنصلية المصرية، جدة، المعمار : عبد الحليم إبراهيم، 2004.لاحظ الملحق.

أمَّا العينة البحثية المتضمنة المشاريع المعمارية ذات البنية التفكيكية الممثلة للاتجاه الغربي فهي:

– مشروع مركز للسينما UFA Cinema Center، درسدن، المعمار مكتب Coop Himmelblau، المصمم Tom Wiscombe، 1998.

– مشروع المتحف الحربي Imperial War Museum، مانشستر، المعمار Danial Libskink، 2002 .

– مشروع توسعة متحف Ordrupgaard، كوبنهاغن، المعمار زهاء حديد، 2005.

– مشروع متحف Denver للفنون، ولاية كولارادو، المعمار Danial Libskink، 2006. لاحظ الملحق.

استند البحث إلى استمارة الملاحظة observation check list كوسيلة للاختبار. وتمثلت المؤشرات الرئيسية للفعل الأخلاقي في العمارة بالعناصر الشكلية x1,x2,x3، والعلاقات الشكلية x4,x5، والقواعد التنظيمية x6,x7,x8,x9، والمراجع الشكلية والآليات x10,x11,x12,x13، وسمات النتاج x14,x15,x16 ذات البعد الأخلاقي بالمؤشرات الثانوية والجدول (1) يمثل تلك المؤشرات.

متغيرات الفعل الأخلاقي الإيجابية	الرمز	متغيرات الفعل الأخلاقي السلبية
الالتزام بعناصر شكلية نابعة من أنماط تاريخية	X1	التحرر من عناصر شكلية محددة وضرب الأنماط التاريخية
استخدام الأشكال الهندسية المتعامدة والعضوية	X2	استخدام الأشكال المفروكة غير المعرفة
اعتماد الهرمية والمقياس الإنساني في بناء العناصر الشكلية	X3	اللا هرمية والمقياس اللا إنساني في بناء العناصر الشكلية
الالتزام باعتماد المواد المحلية القابلة للاستدامة والتدوير	X4	التحرر من استخدام المواد المحلية المرتبطة مكانياً
اعتماد الخصوصية من خلال زيادة نسبة الصلادة بالجدران	X5	عدم فصل الداخل عن الخارج من خلال الشمولية والشفافية
الاتزان باعتماد علاقات شكلية تامة	X6	اللاإتزان باعتماد علاقات شكلية غير تامة
الوحدة والانسجام بين العناصر المعمارية للتكوين الشكلي	X7	واللاوحدة واللاإنسجام بين العناصر المعمارية للتكوين الشكلي
الالتزام بالوحدة والنظام والالتحام في القواعد التنظيمية	X8	التفكيك واللا نظام والتنافر
التناغم الشكلي مع الطبيعة والأبعاد المكانية	X9	اللا تناغم الشكلي مع الطبيعة وضرب الأبعاد المكانية